**العبادة بين الاعتدال والتشدد**

**بقلم د امان قحيف**

**للإيمان بالله تعالى طعمه ومذاقه وهو طيب الطعم حلو المذاق ومذاقه لاتدركه الحواس بل تدركه القلوب المتمتعة باليقين فالقلب هو مناط التذوق والإدراك فى مجال الايمانيات واليقين هو اطمئنان القلب القلب بالاعتقاد حيث يرتفع الشك والالتباس ومن لامس اليقين قلبه اصلح الله عمله ومتعه بلذة المعرفة وعاش فى رحاب الاحساس بالقرب من خالق المخلوقات وواجد الموجودات وعندما يرتشف المرء من حلاوة الايمان التى لاتتوافر الا مع الوعى بجوهر الدين وحقيقة التشريع يدرك معنى التوسط فى التدين والاعتدال فى العبادة ويبتعد بالتالى عن كل اشكال التطرف والتشدد والمغالاة لان الذى يعرف حلاوة الايمان ينفر من التشدد والتطرف كما ينفر الحمل الوديع من الحيوان المفترس وللبقاء فى رحاب تذوق حلاوة الايمان لابد من مراعاة امر هوفى غاية الاهمية الا وهو ضرورة العيش فى رحاب الوسطية التى تمثل الصراط المستقيم الذى هو منهاج عقيدة وعبادة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم طوال حياته ( وأن هذا صراطى مستقيما فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ) الانعام وأخطر الظواهر التى تعانى منها مجتمعاتنا الاسلامية فى الوقت الراهن تتمثل فى العجز عن تذوق حلاوة الايمان وهذا ناتج عن انتشار ظاهرة التشدد فى الدين ولا اقول التشدد فى الدين او التشدد الدينى لان هذه الاقوال مغالطة كبرى اذ ينسب التشدد فيها الى الدين وهذا خطأ كبير فليس فى الدين تشدد إنما التشدد الموجود لدى بعض الافراد يكون فى التدين وليس فى الدين ذاته ومعلوم ان الفرق كبير بين الدين والتدين اذ الاول مرتبط بالنصوص المقدسة المنزلة من عند الله تبارك وتعالى بينما الثانى التدين يرتبط بالفهم البشرى او الفهم الانسانى للدين ونصوصه المنزلة من رب العالمين وهناك بطبيعة الحال من يتعامل مع النص الدينى بوسطية واعتدال وهناك من يتشدد فى فهمه له ويحمله ملا يحتمل من الرؤى والتصورات ان من الافات الكبرى التى تصيب بعض اهل الايمان والالتزام الدينى ان يظن نفر منهم ان تشدده او تشديده**

**ده على نفسه وعلى من حواليه سيكون اكثر تعبيرا عن تمسكه والتزامه وتقواه وهذا ما لم تشر اليه النصوص القرآنية ولا الاحاديث النبوية بحال من الاحوال بالتاالى لم يقل به احد من العلماء الثقاة بل إن الاسلام الحنيف اثر الوسطية ونادى بالاعتدال ويمكن ان نلتمس ذلك فى اكثر من جانب فى تشريعاته على النحو التالى**

**من تجليات الاعتدال فى التشريع**

**اولا فى مجال التوجه الى الصلاة التى هى عماد الدين اختار الله تبارك وتعالى لنا ان نتجه صوب البيت الحرام بمكة المكرمة كى لانكون تابعين فى قبلتنا لامة من الامم ولا لملة من الملل ( فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ) البقرة 144 والله تعالى جعل القبلة شطر المسجد الحرام ليؤكد وسطية هذه الامة قال الله تعالى :**

**( وكذلك جعلناكم أمة وسطا ) البقرة 143**

**ولاحظ قول الله تعالى : ( وكذلك جعلناكم ) بمعنى اننا جعلنا امة وسطا والذى جعلنا كذلك هو ربنا سبحانه وتعالى فالامر ليس فيه اختيار منا بل هو من تقدير الله عز وجل واذا كان الله عز وجل قد شاء لنا ان نكون امة وسطا فيجب علينا ان نكون كذلك فى فهمنا لكل وجه من من وجوه تشريعات ديننا الحنيف فلا نغالى ولانفرط لان فى ذلك نوعا من الخروج عن الوسطية التى اراد الله تعالى لنا ان ننتهجهات ونسير على منوالها سواء فى فهم نصوص ديبن الله او فى تأديتنا للمناسك والشعائر**

**ثانيا : أوضح القرآن الكريم ان ربنا سبحانه وتعالى أنزل الدين وشرع الشرائع وطالبنا بأداء مناسك العبادة كاملة غير أنه سبحانه وتعالى ذكر فى اكثر من اية ان الدين يقوم بالاساس على الوسطية واليسر والتيسير قال تعلى : ( يريد بكم اليسر ولايريد بكم العسر ) البقرة 185 وقال تعالى أيضا : لايكلف الله نفسا إلا وسعها ) البقرة 286 وقال عز وجل فى موضع اخر ( هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ) الحج 78 من هنا كان التشديد على النفس بزعم ان ذلك يؤدى الى القرب من الله تعالى ليس من شريعة الاسلام ولا من منهجيته فى التعبد فقد ورد عن انس بن مال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول " لاتشددوا على انفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار ورهبانية ابتدعوها " وعن ابى جحيفة وهب بن عبد الله رضى الله عنه قال آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين سلمان الفارسى وابى الدرداء فزار سلمان ابا الدرداء فوجد ام الدرداء متبذلة فقال ماشأنك ؟ قالت اخوك ابو الرداء ليس له حاجة فى الدنيا فجاء ابو الرداء فصنع له طعاما فقال له كل فإنى صائم قال : ما انا باكل حتى تاكل فأكل فلما كان الليل ذهب ابو الدرداء يقوم فقال له نم فنام ثم ذهب يقوم فقال له نم فلما كان اخر الليل قال سلمان قم الان فصليا جميعا فقال له سلمان إن لربك عليك حقا ولاهلك عليك حقا ولنفسك عليك حقا فأعطى كل ذى حق حقه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبى صلى الله عليه وسلم صدق سلمان وكتب الصحاح مليئة بمثل هذه المواقف التى تؤكد رفض الاسلام للتشدد فى الطاعة والعبادة ولعل اشهرها قصة الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنهم تقالوها فأعلن كل منهم عن اسلوبه فى العبادة فشعر النبى صلى الله عليه وسلم انهم يشددون على انفسهم فقال قولته الخالدة " هذه سنتى ومن رغب عن سنتى فليس منى " ومن هذا المنطلق وجه اهل العلم سهام نقدهم لاولئك الذين يتشددون مع انفسهم فى العبادة ويميلون الى حرمان النفس من متع الحياة ولذائذها بحجة التقرب الى الله يقول ابن الجوزى 510 – 597هجريه ولقد راينا وسمعنا من العوام انهم يمدحون الشخص فيقولون لاينام الليل ولايفطر النهار ولايعرف زوجة ولايذوق من شهوات الدنيا شيئا وثد نحل جسمه ودق عظمه حتى انه يصلى قاعدا فهو خير من العلماء الذين ياكلون ويتمتعون ذلك مبلغهم من العلم ولو علموا ان الدنيا كلها لو اجتمعت فى لقمة فتناولها عالم يفتى عن الله ويخبر بشريعته كانت فتوى واحدة منه يرشد بها الى الله تعالى خيرا وافضل من عبادة ذلك العابد باقى عمره ويواصل ابن الجوزى نقده لاؤلئك الذين شددوا على انفسهم باسم الزهد قائلا " بلغنى عن بعض زهاد زماننا امه قدم إليبه طعام فقال : لااكل فقيل له لم ؟ قال لان نفسى لاتشتهيه وانا منذ سنين مابلغت نفسى ماتشتهى فقلت لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين وسبب خفائها عدم العلم اما الوجه الاول فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على هذا ولا اصحابه وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم لدجاج ويحب الحلوى والعسل**

**ثالثا : ورد فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم ما يؤكد حرص الاسلام على عدم التشدد او المبالغة حتى فى التساؤل عن الامور التى لم يرد فيها نص ولم يصدر بشأنها تشريع فلقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال لصحابته " ذرونى ماتركتكم فإنما اهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا امرتكم بشىء فاتوه واذا نهيتكم عن شىء فانتهوا ما استطعتم**

**رابعا : اكد القران الكريم اهمية التوسط فى الانفاق ليضبط الحركة المجتمعية للحياة الانسانية قال تعالى : ( وتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ) الاسراء 29 وقال الله تعالى : فى أثناء كشفه عن اخلاقيات عباد الرحمن ( والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) الفرقان 67 إن القرآن الكريم يضع بذلك ملامح للمنهج الوسطى فى التعامل مع المال فيحذر من الحرص الشديد عليه وكنزه ويحذر ايضا من التفريط فيه وتبذيره إنه البعد عن التطرف والتشدد بكل صوره وأشكاله وألوانه**

**خامسا : نهى الدين الاسلامى الحنيف عن الافراط فى اى شىء حتى تناول الطعام فقد بين النبى صلى الله عليه وسلم ان ثمة اهمية وضرورة للتوسط فى هذه المسألة حين قال : ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن بحسب ابن آدم اكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسى**

**حصاد التشدد وتداعياته**

**وهكذا يستطيع المرء تبين الملامح الوسطية فى مختلف التشريعات الاسلامية ولعل إسلامنا الحنيف قد اكد على الاعتدال ورفض التشدد لان تداعياته متعددة ومشكلاته متنوعة نذكر منها**

**اولا :**

**يؤدى التشدد الى الانغلاق الفكرى معلوم ان الشخص المتشدد لا يأخذ إلا برأى واحد ولا يميل البتة الى الانفتاح على اراء الاخرين ويرى ان الانفتاح على اراء الاخرين ويرى ان ماهر عليه من تصور او وجهة نظرهو الصواب وكل ماعليه الاخرون خطأ يجب تصحيحه ويدعوهم الى التراجع عنه وهو منغلق على ما لديه من افكار ولا يقبل التحول عما لديه من قناعات حتى لو ثبت له صدق وسلامة نقيضها**

**ثانيا : يؤدى التشدد الى النظر الى الدين من زاوية واحدة بمعنى ان المتشدد يركز على جانب واحد من الدين ولا يحرص على الاهتمام بباقى الجوانب بنفس الدرجة فهو ليس مشغولا الا بالجانب الذى يسلط عليه زاوية رؤيته فقط فى حين ان المسلم مطالب بالحرص على سلامة التوحيد واصول العبادت وكذا المبادىء الاخلاقية التى اقرتها الشريعة فى المعاملات**

**ثالثا : يؤدى التشدد الى تعطيل حركة التجديد وغلق باب الاجتهاد ولما كان المتشدد يقف عند راى واحد وهو عنده الاصوب وكل الاراء دونه خاطئة فهو يرى انه قد امتلك الحقيقة المطلقة التى لا يصح التحول عنها او الاضافة اليها من ثم فلا مكان عنده للتجديد الفكرى او الاجتهاد فى الراى لان الاوائل فى نظره ماتركوا شيئا بدون بحث للاواخر وما على المعاصرين الا الاتباع والالتزام بما قاله القدامى من اهل العلم وإلا اصبحوا من اهل الابتداع وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار**

**رابعا : يؤدى التشدد الى التعصب فى الراى الامر الذى يوجد حالة من التفرق والتشرذم والتجزئة بين مكونات المجتمع لان كل صاحب راى سيتشدد رايه وينضم اليه من ينسجم معه فتكون الفرق المتناحرة والتيارات المتخاصمة تلك الظاهرة التى تشكل أداة هدم للمجتمعات الاسلامية**

**خامسا : يؤدى التشدد الى الاكراه على الدين فى حين ان القرآن الكريم اكد على التعدية وعلى استمرار التنوع بين البشر بالرغم من اختلاف عقائدهم قال : ( ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين \* إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ) هو 118 , 119 وقال تعالى : ولو شاء ربك لأمن من الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) يونس 99 وقال تعالى : وما أاكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) يوسف 103 وقال تعالى مشيرا الى تعدد الاجناس والاعراق : ( ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) الحجرات 13**

**سادسا يؤدى التشدد بصاحبه الى العجز عن التواصل فكل متشدد تراه ينقم على المجتمع الذى لايسير معه فى نفس مساره ولايتحرك معه فى نفس مداره فتكون النتيجة انه يتعصب ضد الامة والمجتمع ويميل الى العزلة لعدم قدرته على التوافق مع الاخرين من ثم يعجزعن التواصل المجتمعى ويميل الى الانزواء المؤدى فى النهاية الى التطرف**

**سابعا : يؤدى التشدد الى إيجاد خصوم للدين إن ممارسة التشدد والتطرف من شأنه تنفير بعض النفوس منه ومن احكامه لان النفس البشرية تميل بطبيعتها الى اليسر والتيسير وتانفر بطبيعتها من كل اشكال التشدد والتطرف والانغلاق الفكرى وتكره الافكار المبهمة الغارقة فى الغموض من هنا ينسب الى سيدنا على رضى الله عنه قوله " خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله من هنا اعترف العديد من الغربين والشرقيين على سواء بأن الاسلام هو دين التيسير والوسطية والاعتدال لامشاحة فى هذا الامر وكان لابدج له ان يكون كذلك لانه الدين الخاتم للرسالات السماوية ولانه الدين الذى كتب له البقاء مابقى الوجود الانسانى**